بين أدب المرأة وأدب الرجل

للسيدة الفاضلة منيبة الكيلاني

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

يقابل هذا من أدب الرجل في أبدع صوره وأبهى معانيه قول المعتمد بن عباد وقد حال حاله وتحالفت عليه صعاب الأمور وأخذته الأعادي من كل حدب وصوب ونصح له الناصحون أن يصابرهم ويخضع لهم فأبى يقول :

قالوا الخضوع سياسة فليبدُ منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضوع على فمي السم النقيع
إن يستلب مني العدا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم يسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطباع أيسلب الشرف الرفيع
شيمَ الأولى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

هذا الكلام الجميل من لغة التفاخر والعزة والأنفة وكبر النفس ولكنه مع هذا ليس من لغة الخصومة السياسية وليس من لغة الحرب الشعواء التي تنطوي عليها عبارة « أنت أصغر في عيني من ذباب » . هذا كلام حرب ذهبت في ساحتها هذه المرأة وهي تخط بدمها أن أدبها للعقل وأنه أصدق أنباء وأدق تعبيراً وأكثر صراحة .

ومما يقيم الحجة البالغة أيضاً على أن أدب المرأة واقعي صريح دقيق الأداء وأنه للعقل وليس للعاطفة ، فن المدح . فهذه ليلى الاخيلية ازدهاها حزم الحجاج وشدة بأسه فراحت تؤيده وتصوره أبرع صورة فتقول :

إذا نزل الحجاج أرضاً سقيمة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها
غلام إذا هز القناة سقاها
أحجاج لا تعط العصاة مناهم ولا الله يعطي للعصاة مناها

وبذلك خرج أدبها هذا عن كونه مدحاً يسبح فيه بسجايا الممدوح مما توفر فيه أو لم يتوفر ، أو مبالغات بعضها آخذ بأعناق بعض ، أو كلاماً معقداً ؛ أقول خرج إلى كلام على قدر المعنى قورت فيه خصيصة الحجاج وامتدحته في شطر واحد من بيت فقالت :

« غلام إذا هز القناة سقاها » . ولم تقل كما قال المتنبي :

لم يخلق الرحمن مثل محمد أبداً وظني أنه لا يخلق

وأعتقد أن هذا كلام ينطوي على لغة العاطفة وما تحتويه من مبالغات واضحة .

وللقارىء مقارنة أخرى بين شاعر وشاعرة فيها تعزيز جديد لصحة ما ذهبت إليه — من أن لغة المرأة في استنهاض الهمة وتحريك الروح الخامد أقوى أثراً ، وأكثر صراحة ، فهذه عفيرة بنت عفان تستنهض الهمة بكلام من الجر ووابل من الحمم إذ تقول :

وإن أنتمو لم تغضبوا بعد هذه
فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
ودونكمو طيب العروس فإنما
خلقتم لأثواب العروس وللغسل
فبعداً وسحقاً للذي ليس دافعاً
ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

وهذا لقيط بن يعمر الإيادي يحذر قومه أيضاً ويستنهض هممهم بلغة متجاوبة المعاني فخمة الألفاظ إذ يقول :

قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم
ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا
ماذا يرد عليكم عز أولكم إن ضاع آخره أو ذل واتضعا

* * *

وليست السيدة زبيدة وحدها أو عفيرة بنت عفان أو ليلى الأخيلية آيات لإقامة الحجة على أدب للمرأة صراح قراح ، بل هناك غيرهن في أقوالهن الدقة في التعبير والصدق في الأنباء والشرف في المقصد ؛ فقد كانت السيدة عتبة بنت عفيف الطائي أم حاتم كثيرة المال ، مبسوطة اليد ؛ فلما خشي إخوتها الفقر عليها حجروا مالها إلا قطعة من الإبل ، فنحتها سائلا سألها ، وقالت :

لعمرك قد عضني الجوع عضة
فآليت أن لا أمنع الدهر جائعا
فقولا لهذا اللائمي اليوم أعفني
وإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا
فما ذا عساكم أن تقولوا لأختكم
سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا

وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركي يا ابن أم الطبائعا

ولما جيء بسفانة ابنة حاتم أسيرة للنبي صلى الله عليه وسلم انطلقت تقول له من أدب المرأة هذا المقال :

« يا محمد ، هلك الوالد وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب! فإن أبي كان سيد قومه ، يفك العاني ويقتل الجاني ويحمي الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشي السلام ويحمل الكل ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد في حاجة فردّه خائباً ، أنا بنت حاتم الطائي » .

ويكفي هذا الكلام إثباتاً أنه من أدب العقل ، وأنه الذروة في دقة التعبير وصدق الأنباء . إن جواب النبي عليه كان :

« هذه صفات المؤمنين حقاً — خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق » .

٣ — الحلقات المفقودة في أدب المرأة

هنالك حلقات من الأدب توفرت في أدب الرجل وفقدت من أدب المرأة فقداً تاماً فجاء أدبها بهذا الفقد أكثر نبلا وأوفر فضلاً وأصدق فناً . وليس بضائرها أن يعرى أدبها من هذه الحلقات وأن لا تعرفها أو تدين بها وهي برهان جديد على أن للمرأة أدباً يختلف عن أدب الرجل أشد الاختلاف ، ذلك أن الرجل أفرد في أدبه باباً للتحذير من المرأة والتنبيه على أنها شيطان رجيم . وتلمس أدب الرجل من هذا المعنى أفانين الكلام وضروبه فزور الأحاديث ونحت الأمثال وقرض الشعر وصف السجع جاعلا من كل ذلك مثلبة للمرأة ومنقصة لها من حيث بقي كلام المرأة سافياً لا تشوبه أمثال هذه الأكدار .

ولقد تطاول هذا الأدب على الحديث فدس على النبي صلى الله عليه وسلم أن المرأة قرارة اللؤم ودارته ومنبت الشر ونبعته ؛ ولم يكتفوا بهذا على شدة وقعه بل أضافوا إليه أحاديث أخرى استنبطوها من عند أنفسهم .

منها : « أوثق سلاح إبليس النساء » . ومنها : « النساء حبائل الشيطان » و « شاوروهن وخالفوهن » . و « إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن » . لقد أراد أدب الرجل أن يصف المرأة بمثل هذه الأوصاف على لسان رسول الله وهذه الأوصاف وإن كانت بعيدة عن الواقع ولا تصبر أبداً على محك النطق فإنها أبعد ما تكون عن بلاغة الرسول الكريم وما جاء في أحاديثه صلى الله عليه وسلم عن المرأة .

وعزز أدب الرجل هذه الجهة بأن أورد على لسان أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أن قال : لا تطيعوا النساء على حال ، ولا تأمنوهن على مال ، ولا تذروهن يدبرن العيال . لا دين لمن ولا عقل لمن . يتبين الخير ويحفظ الشر » الخ ...

فإذا عرفنا أن الامام عليه السلام أمير البيان — وأن نماذج كلامه البليغ مثبتة في نهج البلاغة ، وهي ترتفع في جملتها عن مثل هذا الشتم أمكن القول بأن هذا أدب من جملة الحلقات التي أراد الرجل أن يستكمل بها فنون القول مما انعدم في أدب المرأة وأنفت اللجوء إليه . وليس هذا فقط فقد جاء الرجل بما ينسبه إلى العقلاء والفلاسفة والشعراء ليأخذ على المرأة سائر مناحيها ، فزعم أن الأقدمين قد قالوا « لا تدع المرأة تضرب صبياً فإنه أعقل منها » . وأن سقراط رأى امرأة تحمل ناراً فقال : نار تحمل ناراً ، والحامل شر من المحمول » .

هذه نماذج من أقوال الرجال تدون في كتب الأدب على أنها فن من فنونه ، وعندي أنها فن من فنون المقراض والمثقب والمبرد لا أقل ولا أكثر مما لم يرد في أدب المرأة جميعه .

وليس هذا فقط بل جاء في هذا الضرب من الأدب كلام وجيع مؤلم ؛ فقد قال أحدهم :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن جزوعا إذا بانت فسوف تبين
وان هي أعطتك اليمين فإنها لغيرك من خلانها ستلين
وخنها وإن كانت تقي لك إنها على مدد الأيام سوف تخون
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

يقابل هذا في أدب المرأة أدب واحتشام وصمت واحترام ، إذ هو حلقة مفقودة لديها لا تعرفه ولا تحسن صوغه ولا تتقن فنه ، وذلك عندي نقص يفوق كل تمام .

ولم يقتصر هذا اللون من الأدب على مهاجمة المرأة بالتهمة فقط ، بل استهدف القضاء المبرم على خصائصها ؛ فقد جاء على لسان شاعر الفلاسفة أبي العلاء المعري قوله :

علموهن الغزل والنسج وخطوا كتابة وقراءه فإن صلاة الفتاة بالجد

والاخلاص تغنى عن يونس وراءه

إن هذا فضلاً عن كونه وضعاً شاذاً فهو لون من الأدب بقيت المرأة تجهله وستجهله دائماً ما دامت قد خلقت لرسالة فى الحياة سامية القصد رفيعة المجد ، وكان عليها أن لا يتجسد عندها هذا الفرق لولا ما تفرع عنه بالفعل ، ومن هذا أن القرآن الكريم أباح النظر إلى وجه المرأة فصيروا وجهها عورة ، وفرض عليه النقاب حتى أصبح كفها عورة وحتى صوتها ، وإن كان فى قراءة القرآن ، وتعدى الأمر إلى أكثر من هذا أيضاً فاعتبروا اسمها عورة ، وضرب عليها الذل والهوان إلى هذه الدرجة حتى أن المتنبي وهو من نعرف شعراً وأدباً عندما أراد أن يرثى خولة بنت سيف الدولة لم يستحسن أن يورد اسمها الذى كان عورة بل استبدله بوزنه فقال :

كأن مثلة لم تملأ مواكبها ديار بكر ولم تخلع ولم تهب

هذا هو الذى حز فى نفس المرأة كثيراً ، فقد أزيحت من المجتمع وضربت عليها الذلة والمسكنة وباءت بغضب على غضب ، وحيل بينها وبين ما يقوم حياتها وبذلك هزل أدبها وذبل كيانها وغاض معينها وصوح زرعها ، ومع ذلك لم تشحذ من البقية الباقية أدباً استفزازياً أو سلاحاً انتقامياً ، بل تجملت بالصبر الجميل ، وتذرعت بأن للبلوى حيناً وأن لديجور ليلها انبلاجاً .

وإذا صح أن الشر يستشرى ويتكاثر ويتضاعف وتتفرع عنه فروع فإن هذا الأدب قد استشرى وتكاثر فأورث الأدب العربى والأدباء نوعاً من الشعور كانوا عنه جميعاً فى مأمن وغنى ، فلم يعد الرجل يكتفى بواحدة من النساء ولم يعد يفهم من المرأة إلا أنها سائمة . وهذه أمثلة توضح ما جاءت به هذه الحلقات من الأدب المفقودة فى أدب المرأة من وبال على المرأة :

وضع أبو الحسن بن عبدون البغدادى المتطبب رسالة ضافية الذيل يصنف فيها النساء اصنافاً ، صنفاً يصلح للخدمة وصنفاً لاحتمال الأذى وصنفاً يموت عند الولادة وصنفاً يقرع بالعصا قرعاً ، وإلى غير ذلك مما اعتبر به المرأة حديقة حيوان يجب أن تدرس أوصافها على هذا السبيل المستغرب ، وانبرى ابن عبدون هذا فى كتابه رشيق العبارة سجاعاً كأنه يضع فصل الخطاب فى هذا الشتم المقذع حتى إذا انتهى حمد الله وأثنى عليه إذ وفقه إلى ذكر بعض خصائص النساء .

ومثل آخر ، فقد خرج دعبل ومعه أعرابى ونبطى إلى موضع يقال له بطبانا من أمصار دجله متنزهين فأكلوا وشربوا

فقال دعبل : نانا لذيذ العيش فى بطبانا .

فقال الأعرابى : لما حثثنا قدحاً ثلاثا

فقال النبطى : واسرأتى طالقة ثلاثا

وهكذا بلغ من استهتاره أن أضاع امرأته لأجل قافية !

هذه نماذج من أحوال المجتمع لما تنشى فيه أدب ليس للمرأة فيه نصيب ، وهذه صور من الأدب المخطر الذى لم تأخذ المرأة بأسبابه فأضحى حلقات مفقودة فى أدبها ، وهو فى حد ذاته نقص يفوق كل تمام ، وهو البرهان الأكبر على أن للمرأة أدباً غير أدب الرجل وعلى أن أدبها للعقل .

مليبة الكيلانى

مجلس مديرية جرجا

يعلن عن حاجته إلى توريد أعلام مصرية رسمية لمعاهده والمواصفات موضحة بالمقايسة وقد تحدد يوم ١٣ يولية سنة ١٩٤٧ الساعة العاشرة صباحاً ميعاداً لفتح العطاءات وتطلب الشروط والمقايسات على طلب مدموغ من إدارة المجلس بسوهاج نظير دفع ٢٥٠ مليم مائتين وخمسين مليما خلاف أجرة البريد وقدرها خمسون مليما . ٧٣٦٨